في الصلاة الربّيّة

١٤ تمّوز ٢٠٠٢

تعتبر «الصلاة الربّيّة» (أبانا الذي في السموات ليتقدّس اسمُك...)، كما أسماها، لأوّل مرّة، القدّيس كبريانوس القرطاجيّ (+٢٥٨)، من أكثر الصلوات التي يتلوها مسيحيّو العالم شهرةً، وذلك بأنّها «الصلاة» التي علّمها يسوع للكنيسة، وأرادها نموذجًا لكلّ صلاة.

منذ البدء، أبدى آباء الكنيسة اهتمامًا بالغًا بهذه الصلاة، فتركوا تفسيرات كثيرة عنها، وعملوا على إدراجها في الأسرار المقدّسة والصلوات الكنسيّة. وهي موجودة اليوم في جميع صلواتنا الجماعيّة والفرديّة.

الصلاة الربّيّة – على الرغم من صغرها – صلاة غنيّة بمعانيها، وقد وصلتنا عن يد الإنجيليّين متّى (٦: ٩– ١٣) ولوقا (١١: ٢– ٤)، في صيغتين تفترق الواحدة عن الأخرى بأمور عدّة. ولعلّ هذه الفروقات في الصيغتين تعود إلى الاستعمال الليتورجيّ في كنائس مختلفة. سعى العديد من المفسّرين إلى معرفة أيّ من الصيغتين هو الأقدم فتشعّبت آراؤهم واختلفت. لن ندخل، في هذه العجالة، في مقارنة نصّي متّى ولوقا لنعرف أيًّا منهما هو الأقدم، يكفي أن نؤكّد أنّ المسيحيّين الأوائل اقتنعوا بأنّ الأمانة لفكر يسوع أهمّ، بما لا يقاس، من ترداد كلماته تردادًا حرفيًّا. ولا ينفعنا، في هذا المجال، أن نتبع القاعدة الأصعب التي يقول بها المفسّرون، فيما يقارنون بين النصوص، لمعرفة الكلمات التي خرجت من فم يسوع حرفيًّا، أو الوصول إلى رواية حدث كما أتمّه. فإذا فضّلنا الصيغة الأقصر لهذه الصلاة، وهي صيغة لوقا (التي يرى بعضٌ أنّها الأصل)، نهمل ما عند متّى من ميزات خاصّة (إيقاع متناسق، عبارات ساميّة...)، قد لا تناسب العقليّة اليونانيّة التي خاطبها لوقا، وربّما دفعته إلى تقصيرها وتكييفها.

تعوّد بعض المعلّمين القدماء تقسيم الصلاة الربّيّة إلى قسمين. يقول العلاّمة ترتليانوس: «ما أروع الحكمة الإلهيّة التي رتّبت هذه الصلاة، فبعد أمور السماء (وهي الطلبات الثلاث الأولى) تأتي أمور الأرض وحاجاتها» (ويقصد بذلك الطلبات الأخرى). غير أنّ هذا التقسيم –

أوّل مَنْ شَرَحَ الصلاة الربّيّة، وأدخلها في ترتيب سرّ المعموديّة، هو العلاّمة ترتليانوس (الذي اعتبرها «مختصر الإنجيل كلّه»). ثمّ تبعه، في مسعاه، القدّيس كبريانوس الذي كان يطلب من الموعوظين (وهم وثنيّون ويهود آمنوا بالربّ يسوع، وكانوا يستعدّون لتقبّل سرّ المعموديّة) حفظها غيبًا، وتلاوتها علنًا أمام الكنيسة أثناء قبولهم المعموديّة. حذا حذو ترتليانوس وكبريانوس معظمُ آباء القرن الرابع فأدرجوا هذه الصلاة في خدمة القدّاس الإلهيّ. ففي كنيسة أورشليم، مثلاً، كان القدّيس كيرلّس يشرحها أثناء الخدمة الإلهيّة، ويطلب من المؤمنين تلاوتَها قبل أن يتقدّموا من المناولة. وهذا ما يفعله المؤمنون اليوم.

يدّعي بعض علماء التفسير أنّ ثمّة قرابة بين الصلاة الربّيّة والصلوات اليهوديّة في زمن يسوع من حيث المبنى والمعنى. غير أنّ هذا الادّعاء ليس واقعيًّا، لأنّ الصلاة الربّيّة «لا تتمحور حول خبرة إسرائيل ولا حول الشهادة التي عليه أن يؤدّيها لله...». ولعلّ أبرز ما يميّزها عن كلّ الصلوات التي قبلها هو تلك الحرّيّة التي تدفع المؤمنين إلى أن ينادوا الله الذي لا يدنى منه: «أبانا». ولا يخفى أنّ ترتيب الطلبات فيها ابتكاريّ وله معانيه الجديدة، وهو يميّز تعليم يسوع عن غيره، ونرى أنّه به يعلو على كلّ تعليم آخر، ويتخطّاه.

تحثّنا، تاليًا، على أن نطلب دائمًا جسد الربّ الذي نتناوله في القدّاس الإلهيّ.

الصلاة الربّيّة هي صلاة الكنيسة التي أدركت أنّ المسافة بين الأرض والسماء قد زالت، وهي صلاة الغنج الأكبر الذي يهبه الروح القدس للذين يعملون بمشيئة الآب في كلّ زمان ومكان.

كما هو هنا – يجب أن نفهمه بتوافقه ومجمل فكر يسوع الذي يدعو إلى عيش الآخرة أوّلاً والعمل على تبيانها «الآن وهنا» (يقول الربّ: «اطلبوا أوّلاً ملكوت الله وبِرّه...»). وذلك بأنّ الذي يُرضي الله ليس أن نقدّس اسمه بإخلاصنا له فقط، ولكن بعملنا على خلاص البشر أيضًا (وهذا عينه من دوافع الإخلاص لله). فلا يجوز أن نفهم، مثلاً، أنّ الطلبة الثانية في الصلاة الربّيّة: «ليأتِ ملكوتُك»، تختصّ فقط برغبة المؤمنين في حلول الملكوت الآتي، لأنّ أولاد الله الحقيقيّين لا يعترفون بمجد الله الأخير فحسب، أو يتوقون فقط إلى اليوم الذي يملك فيه على كلّ أحبائه، «ويخضع كلّ أعدائه تحت قدميه»، ولكنّها أيضًا (تختصّ) بترجمة إيمانهم ورجائهم في هذا الدهر، وذلك لأنّ مُلك الله – بالنسبة إليهم – هو في خلاص البشر الذي يبتدئ هنا في هذا العالم. وهذا يمنعنا منعًا باتًّا من التمييز بين ما هو عموديّ (إرضاء الله) وبين ما هو أفقيّ (الاهتمام بالناس وحاجاتهم)، إذ كيف نهتمّ بالله إن لم نلقَ أبناءه كأخوة (أنظر رسالة الإنجيليّ يوحنّا الأولى)؟ فالله هو أبونا جميعًا، وفي وعينا لبنوّتنا له يجتمع شوقنا الدائم إلى حلول ملكوته، ويقوى عملنا على تقديس العالم. وفي السياق عينه يجب أن نفهم أنّ طلبة «الخبز الجوهريّ» لا يتعلّق معناها بالخبز المادّيّ الذي نأكله في هذا العالم فحسب، ولكن أيضًا بالخبز السماويّ الذي يعطيه الربّ للذين سيجلسهم على مائدته الأخيرة «مع إبراهيم وإسحق ويعقوب»، وهي